أكاديمية الفنون
ACADEMY OF ARTS

الفن المعاصر

مجلة فصلية متخصصة تترجم الجديد فى الفنون المعاصرة والثقافة

CONTEMPORARY ART MAGAZINE- REVUE D'ART CONTEMPORAIN

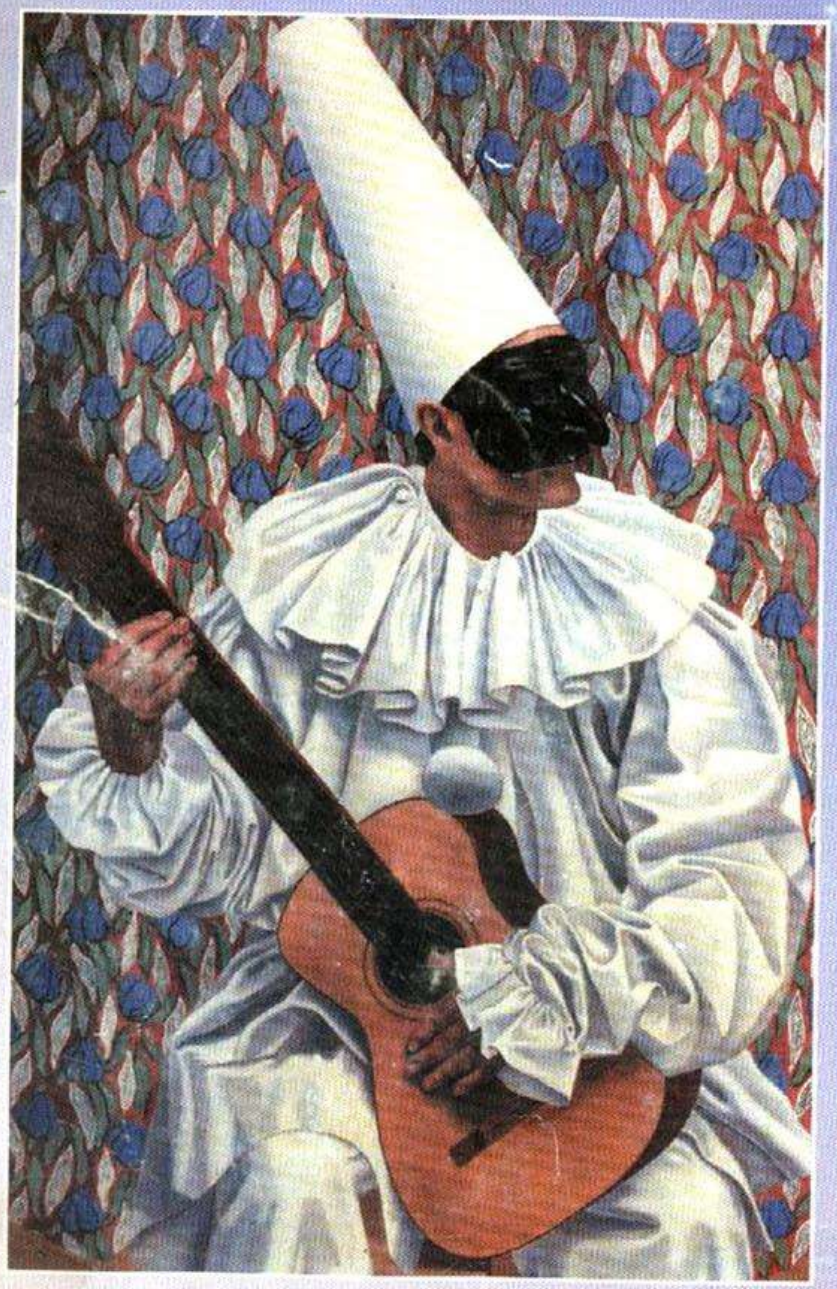

دوجلاس كيلنر
المشقفون والتكنولوچيا الجديدة
دونالد جاردنر
اعادة إختراع الوجه الانسانى فى المسرح
جيكوب وامبرج
إبداع فن تصوير المنظر
جولى فان كامب
الإنسانيات ونقد الرقص
جون ر. كوفاتش
تفكيك الثنائية الموسيقية
جورج بالوندييه
ثراء الثقافات الشعبية
مايك بيكوف
نهايه الفلسفة وازدهار الافلام
الياندرو باريكو
نص مسرحية العازف والبحر

العدد الثانى - خريف ٢٠٠٠

لوحة "بييرو العازف" (١٩٢٤) للفنان چنيو سيڤيريني (١٨٨٣ - ١٩٦٦)

الفن المعاصر

مجلة علمية محكمة

تصدرها أكاديمية الفنون

رئيس التحرير أ . د. فوزى فهمى

مدير التحرير د . وائل غالى

سكرتارية التحرير د . محمد مهران

عادل عبد الحميد

هشام عبد العزيز

مستشارو التحرير

أ . د . سمحة الخولى

أ . سعد أردش

أ . توفيق صالح

أ . د. نبيل راغب

أ . د. رتيبة الحفنى

أ . د. صلاح قنصوة

أ. صفوت كمال

هيئة التحرير

أعضاء هيئة التدريس لأقسام اللغات بمركز اللغات والترجمة بالأكاديمية

المحتويات

* كلمة التحرير ٦

مسرح

* إعادة قراءة مسرح أ. آرتو، ت: أ. د. نبيل راغب، مراجعة: أ. د. محمد عنانى ١١

* إعادة اختراع الوجه الإنسانى، ت: د. سحر فراج، مراجعة: د. سامى صلاح ٣٩

* عن المسرح والحقيقة، ت: أ. د. أمين الرباط، مراجعة: أ. د. عبد الحميد حسين ٧٥

سينما

* دولوز والسينما، ت: د. محمد لطفى نوفل، مراجعة: أ د. يحيى عزمى ١١٩

* نهاية الفلسفة والسينما، ت: د. محمد السيد، مراجعة: أ د. هشام أبو النصر ١٥٣

موسيقى

* التعقيد الموسيقى، ت: أ. د. حمادة إبراهيم، مراجعة: أ د. مارسيل متى ١٩٥

* تفكيك الثنائية فى الموسيقى، ت: محمد الجندى، مراجعة: د. عزة مدين ٢٠٩

رقص

* حركة الكتابة وكلمات الرقص، ت: هبة نبيل، مراجعة أ. كريمة منصور ٢٢٧

* الإنسانيات ونقد الرقص، ت: أ. د. نهاد صليحة، مراجعة أ. د. ماجدة عز ٢٤٧

فنون شعبية

* تقاليد إحدى أسر فرجينيا، ت: د. سمية مظلوم، مراجعة: أ. صفوت كمال ٢٩٥

* ثـراء الثقـافـات الشعبيـة، ت: سها يحيى نجم، مـراجعة أ. د. محمد الجوهرى ٣٢٧

فن تشكيلى

* ابداع فـن تصوير المنظـر، ت: سـالـى محمد إمام، مـراجعة: أحمد فؤاد سليم ٣٤٥

* فـلـسـفـة اللـون، ت: د. فـيـفـى فـريد، مـراجـعـة: أ. د. أحمد إبراهيم ٣٧٣

النظرية النقدية

* مـن البنيـة إلـى البلاغـة، ت: د. خـالد سـالـم، مـراجعـة: د. حسن عطية ٣٨٥

* أشـبـاح الـنـقـد، ت: أ. د. شـاكـر عـبـد الحميد، مراجعة: أ.د. نبيل راغب ٣٩٩

النظرية الثقافية

* المثقفون والتكنولوجيا الجديدة، ت: سـامـح فـكـرى، مراجعة: سامى خشبة ٤٤٧

* الـحـوار الأوروبى، ت: د. حـامـد غانـم، مـراجـعـة: أ. د. باهـر الجـوهـرى ٤٩٣

* السـيـاسـة الحضاريـة، ت: د. سهير الجمل، مراجـعـة: أ. د. حمادة إبراهيم ٥٠٥

الإبداع

* الـعـازف والبـحـر، ت: أمـانـى فـوزى حبشـى، مـراجعـة: أ. سعد أردش ٥٢١

مصطلحات

*ثقافة التعليم، ت:سامح فكرى ت: محمد الجندى، مراجعة: أ. د. صلاح قنصوه ٥٧٣

كلمة التحرير

صدر العدد الأول من "مجلة الفن المعاصر" كمجلة أكاديمية متخصصة تترجم الجديد فى الفنون والثقافة فى صيف عام ٢٠٠٠ ، فإذ بها تنفذ بعد صدورها بوقت وجيز، وسجل النقاد أن صدورها علامة لافتة فى الحركة الفنية والفكرية للتعريف بعلوم وتيارات الفنون الرفيعة عالميًا.

وأسرة المجلة تتقدم بشكرها للترحيب الذى أبداه قطاع عريض من المثقفين والمبدعين والنقاد والمهتمين بشئون الفن في الوسط الثقافى المصرى بصدور المجلة ، كما تذكر لهم بالتقدير العميق تعاونهم مع أسرة المجلة فى أداء رسالتها من خلال التنبيه الرفيع إلى اقتراحات وملاحظات وآراء طيبة تستهدف تطويرها، مثل اقتراح نقد ومحاورة الباحثين العالميين - نحاول وفق صيغة أولية أن نحققه إبتداء من هذا العدد ، ونطمح إلى الإستكمال بصيغة أفضل فى العدد القادم - وأيضًا اقتراح نشر مختلف الإبداعات الأجنبية إلى جانب الدراسات - بدأنا بالفعل فى إصدارنا الثانى تحقيق هذا الإقتراح - ثم طلب الكثيرون تحويلها من مجلة فصلية إلى شهرية حتى يتواصل القارىء مع الثقافة العالمية بشكل أقرب زمنيًا ، وهو ما يحتاج إلى جهود ضخمة ، لانخشاها ولا نجتنبها لأننا نؤمن أن ما يشق مولده يشق موته أيضًا ، ولأننا منذ صدور العدد الأول حرصنا على أن نحلم مع القراء الجادين والدارسين بأن تكون المجلة فى المستقبل

مرجعًا ومصدرًا لمن يسعى وراء التحليل الجديد والبحث الجاد فى الفنون والثقافة وباتصال فورى ودون إنقطاع زمنى يفتقد العزلة وعندئذ يستحيل الحوار، إن المجلة تدرك مسئوليتها وتحاول أن تشارك فى سد فراغ هائل فى البحث العلمى فى الفنون والثقافة فى مصر بترجمة البحوث العالمية والدراسات الأجنبية والمقالات المتعمقة من مختلف أرجاء المعمورة ومن مختلف لغات الأرض، وتدرك مسئوليتها، وتدرك كذلك أنها ليست وحدها ولن تكون وحدها، لكنها ستسعى دائمًا لأن تستنفر كل إمكاناتها لتوسع فضاء الفكر كى لا يُلجم العقل ويبقى حبيسًا ففى ذلك الخطر كل الخطر ، إذ الثقافة التى تتكفىء على نفسها تموت.

التحرير

العربية بين الأخذ والعطاء *

غاية ما أخذته العربية عن غيرها من اللغات بعض ألفاظ مفردة من باب الأسماء لا يتجاوز بعض المائتين وأكثرها من الأسماء الجامدة كخز وديباج واستبرق وترياق وفالوزج مما وجدوه عند غيرهم من أمتّى فارس والروم ولم يوجد عندهم ، أما علماء هذه الأمة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الأولى ونقلوا إليها العلم من الفارسية أو اليونانية أو الرومانية فلم يحتاجوا إلا إلى بضعة أسماء حكمها حكم الألفاظ التى ألمعنا إليها سابقًا. (١) أما ما أعطته اللغة العربية لغيرها من اللغات والزمم فكثير من ذلك أنها أعطت حروفها الهجائية لملايين من الشعوب فى بلاد الترك والهند وجزائر فان المورو يكتبون لغتهم بالحروف العربية إلى الآن . (٢) أعطت نفسها لكثير من الأمم الذين تقلبوا على أهلها أو تقلب أهلها عليهم مئات من السنين ، فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب أوروبا فإن الأتراك والتتر والفرس مازال علماؤهم يؤلفون مؤلفاتهم فى اللغة العربية إلى عهد قريب . (٣) أعطت لغات الأتراك والتتر والفرس ولاردو (من لغات الهند) المئات والألوف من الألفاظ والمعانى ومئات وألوف من الجمل التامة ، بل أعطت أكثر هذه اللغات ولاسيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر وما بعده أيضًا. (٤) أعطت لغات أوروبا الأرقام العربية وكثيرًا من أسماء المعانى والمصطلحات العلمية ولكنها قليلة وكان الأولى بنا الإضراب عن المناصرة لها .

جبر ضومط

---

* من مقال : جبر ضومط ، اللغة العربية ما أخذت وما أعطت ، المقتطف ، فبراير ، ١٩١٣ .

الأغنية الشعبية

فنون شعبية

يتناول البحث الذى نقدم له هنا " عائلة هامونز : تقاليد إحدى أسر فرجينيا الغربية وأصدقائهم " الذى كتبه " فريد ماكُورْميك " كيف حافظت هذه الأسرة وأصدقائها على موسيقى وأغانى قديمة وقصص أبطال فى منطقة الأبلاش فى جبال الولايات المتحدة .ويناقش المقال مشكلة الحفاظ على الموسيقى التقليدية باعتبار أنها جزء مكمل بطريقة الانسان فى الحياة . ويناقش كيف أن الموسيقى والأغانى التقليدية تشمل جانبا أساسيا فى الثقافة الشعبية لأى مجتمع . كما يبيّن المقال أن الفولكلور هو مواد ثقافية تأسيسة شائعة ، تتولد تلقائيا من داخل الجماعة . كما أن الفولكلور في أي مجتمع هو جزء مُتمّم لثقافة المجتمع . لذلك فإنه من الضرورى الاهتمام بمواد الفولكلور كجزء من حياة الشعوب. وقد تصدر البحث عبارة عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر التالية: « الإنسان حيوان معلق فى شباك من الحقيقة من صنع يديه »

معانى فى غير لغتها *

المعرب هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها . قال الجوهرى فى "الصحاح" : تعريب الاسم الأعجمى أن تتفوه به العرب على منهاجها ، تقول : عربته العرب وأعربته أيضًا . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : أما لغات العجم فى القرآن فإن الناس اختلفوا فيها . فروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، وعكرمة ، وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا فى أحرف كثيرة إنها بلغات العجم. منها قوله : طه ، واليم ، والطور ، والربانيون ، فيقال : إنها بالسريانية . والصراط ، والقسطاس ، والفردوس ، يقال : إنها بالرومية . ومشكاة ، وكفلين ، يقال: إنها بالحبشية . وهيت لك ، يقال : إنها بالحورانية ، قال : فهذا قول أهل العلم من الفقهاء . قال : وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه كلام العجم شىء لقوله تعالى . قرآنا عربيًا . وقوله : بلسان عربى مبين . قال أبو عبيدة : والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين معًا، وذلك أن هذه الحروف أصولها عجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال إنها عربية فهو صادق ، ومن قال عجمية فهو صادق .

السيوطى

---

* من كتاب : عبد الرحمن جلال الدين السيوطى ، "المزهر فى علوم اللغة وأنواعها" ، بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

عندما انخرط عالم الأنثروبولوجية الفرنسي المعاصر جورج بالونديه في حياة البحث العلمي في أفريقيا أوائل عام ١٩٤٦ لم يكن لديه مشروع خاص محدد و كان لا يفكر في تخصيص أنثروبولوجيا علمية معينة، سواء أكانت أنثروبولوجية اقتصادية أو ثقافية. الأمر الوحيد الذي كان يفكر فيه هو تحليل المجتمعات الأفريقية بعينها دون الدخول إلى التنظير العام. كان لا يزال يعاني من تأثير منهجيات الاثنولوجية التقليدية التي تربى عليها من خلال أساتذته في جامعة السوربون بباريس بفرنسا كما أجرى بحوثه الميدانية في منطقة قريبة من داكار عاصمة السنغال. و ذلك على شعب من الصيادين و المزارعين. أما في هذه الدراسة الفرنسية التي نقدم لها هنا الترجمة العربية الكاملة "ثراء الثقافات" في إطار "أفق الثقافة : في ذكرى العالم فرنا ند دومون" (عن الطبعة الإلكترونية للمداخلة الفرنسية، ٢٠٠٠/٥/٥) فهو يؤكد على أنه تلزمه تجربة عوالم اجتماعية و ثقافية متنوعة لكي يصبح الغرب أقل عمى تجاه مجتمعاته كما كان ماكس فيبر عالم الاجتماع الألماني المعاصر قد وضع منهج "المقارنة" في موضع أساسي من مواضع علم الاجتماع. ولذلك فان القول بالخصوصية المطلقة أو بالانغلاق على الذات إنما هو قول يهدف إلى عزل مجتمع بعينه عن بقية المجتمعات الأخرى.

ثراء الثقافات الشعبية*

تأليف : جورج بالانديه ترجمة : سها يحيى نجم مراجعة : أ.د محمد الجوهرى

تحتل مسألة الثقافة مركز الصدارة فى أعمال فرنان ديمون Fernad Dumont، حيث إنها ظلت لفترة محور نشاطه فى خدمة المؤسسات الثقافية والتزامه الذى قاده إلى بحث مسألة الهوية القومية والمسار التاريخى الذى تتشكل من خلاله هذه الهوية وتتحول . إن مسيرة الحياة وارتقاء الفكر - الفلسفى والأنثروبولوجى والاجتماعى فى آن واحد - يعطيان لبحث المسألة الثقافية والذاتية أشكالاً متغيرة ودائمة التعقيد. ومن شأن تعميق التساؤل حول أساس شخصية ثقافية معينة وما يقرنها بمكان ما أن يقوى من صلابتها أمام التقلبات التاريخية وأن يصاحب البحث فى تحقيق الخصوصية فى الكونى . ولأن فرنان ديمون يعقد صلات فكرية مع علم اللاهوت ومع الأنثروبولوجيا الفلسفية الحديثة ، فإنه يوضح ما يمكن أن يفكك الثقافة من عوارض المكان والزمان . ومن استعمالها الضار فى حقل علاقات الدمج والاستبعاد والمواجهات الفردية والجماعية .

وتظهر مشكلة معرفة الآخر والتعرف عليه فى ألعاب التباعد والاختلاف التى عن طريقها تتبلور الهوية الثقافية وتتنوع الهويات . كما تظهر تلك المشكلة - فى صيغتها الأكثر

* هذه ترجمة البحث LA RICHESSE DES CULTURES لمؤلفه : Georges Balandier المنقول عن شبكة الإنترنت العالمية : http//: www.bibl. ulaval. ca/ doelec / pul / dumont / fdelapo9.

اتساعاً – فى شكل قضية الاتصال بين الثقافات ، حيث إنها تطرح فى ألفاظ تحرف المعطيات حينما تختلط المرجعيات (ثقافة ، هوية ، جماعة عرقية ، شعب) وتستخدم بطريقة تتسم بالتلاعب مستهدفة إثارة المشاعر والصراعات التى تغذيها هذه المرجعيات .

وتكشف الحوادث الجارية هذه الانحرافات التى تصل إلى أشكال مأساوية . فهى تساعد على معاودة ظهور جنون الانتماءات التى تقاوم العنف وتطلقه ، والتى تمارس عمليات الرفض ، والفصل ، وتفضى إلى اختلافات لا يمكن المصالحة بينها . وهذه هى مفارقة هذا القرن المنتهى، الذى من جهة ، يعطى المجتمعات والثقافات الوسائل التى تحقق لها الاتصال فيما بينها ، ومن جهة أخرى، يكشف عن صور النكوص التى تتولد من جانب الفئات المتميزة وتأخذ فى التصاعد باسم الثقافة، إلى أن تبلغ فى النهاية ذروتها وتقتلع الثقافة اقتلاعاً.

مشكلة الاتصال بين الثقافات

تحرص أعمال فرنان ديمون على مواجهة هذه المشكلة بدءاً من تأمل الأساس نفسه . لذلك يجب أن نصوغ هذه المشكلة على هيئة سؤال مزدوج : هل يمكن حدوث اتصال بين الثقافات بسبب وحدة الجنس البشرى التى تسمح بوجود كيانات كلية ، وسمات ثقافية عامة ، ومعانٍ أساسية ومشتركة ؟ أم أن هذا الاتصال مستحيل بسبب صعوبة الاتصال بين الثقافات التى قد تبلغ حد الاستحالة، حيث تمثل كل منها عالماً بذاته لا يتشابه إلا فى المظاهر فقط ؟ موقفان متطرفان . الموقف الأول يخص الكلية المثالية ، أما الموقف الثانى فيخص النسبية المطلقة والذى لم يجد كثيراً من المدافعين عنه .

إن محاولات الإجابة عن هذا التساؤل تتنوع . فثمة محاولة تستعين

ببعض الشواهد التى تثبت تعادلاً بين الثقافة واللغة ، دون أن تجعل من اللغة العامل المهيمن فى الاختلاف ما بين الثقافات . وهكذا تنظر مثل هذه المحاولة إلى الثقافات على أنها تعقيدات لغات أو تخفيضها إلى مستوى " نصوص " غامضة ينبغى أن تكشف وأن تُفك رموزها . وهكذا تصبح العلاقة بين الثقافات ، بعد أن ترد إلى شكلها البسيط ، مسألة ترجمات متعددة ، يمكن عن طريقها تفسير التعبيرات المتعددة لثقافة ما بواسطة ثقافة أخرى وفقاً للأعراف المتفق عليها . ومع ذلك ، فإن هذا الحل، الذى يستمد جاذبيته من التقدم السريع للعلوم اللغوية الحالية ، لا يستطيع أن يرضى الجميع . فمن جهة، لا يمكن اختزال كل اتصال إلى شكل لغوى . ومن جهة أخرى ، فإن النظم الثقافية لها طبيعة أخرى تغاير الفلسفات التى تنهض عليها اللغات. فإنها أكثر تعقيداً منها وأشد تنوعاً، كما أنها محملة بالتمثيلات وبالصور ومرتبطة بانفعالات وبمعتقدات وحاملة لمعانٍ تتوافق مع الظروف والاستراتيجيات التى ترغمها عليها.

ولا تفى هذه الإجابة - التى تتمثل فى "الترجمة" - بالحد الأدنى من الإجابة المنشودة . فهى تؤكد على وجود مستوى يمثل ويجسم معانٍ يسهل إدراكها على الفور ، الأمر الذى يفتح منفذاً للثقافة الأخرى، معطياً احتمالات فهم شديدة التواضع. ولاشك أن تردد هذا الجانب " المرئى " وتفسيره سوف يتيح فرصة هذا النفاذ، إذ يأخذ فى الاعتبار الإيماءات والممارسات المادية وروتين الحياة اليومية والسياقات التى تحتوى هذا الروتين . ولكنها لن تكون سوى خطوة أولية ، غير كافية وحدها، وتنطوى على مخاطر عديدة من حيث الترجمة الخاطئة بسبب الثقة التى نوليها للمظاهر وحدها.

فرانسوا چاكوب

هناك إجابتان أخريان تقودان إلى البحث عن " ممرات " بين ثقافة وأخرى . تتمسك الأولى بالكشف عن التكوينات الثقافية التى تتسم بطبيعتها بشخصية متميزة وبالقدرة على التواصل الثقافى، لأن جانباً منها يتسم بالاستقلال النسبى بسبب ظروف النشأة وطبيعة السياق. وبما أن هذه المظاهر ليست مرتبطة بشدة بالوسط الذى تشكلت فيه ، فإنها تكون قابلة للانتشار ومالكة لقدرة بلوغ الكونية. وقد أوضح ماكس فيبر Max Weberهذا الحل فى دراساته الخاصة بالأديان العالمية الواسعة الانتشار، آخذاً فى الاعتبار كافة الجوانب التى جعلتها مقبولة فى الأوساط الاجتماعية والثقافية المختلفة، ومظهراً كذلك الروابط المنسوجة بينها . أما الإجابة الأخرى، فقد تولدت فى ثنايا محاولات إقامة الدليل على الوشائج الثقافية التى تتقارب، وتهجينات الثقافات التى تكوّن مزيجاً منصهراً. وفى الحالتين ،سوف يحدث انقسام ينجم عنه تداخل الاتصال . حيث يلعب تسلسل النسب بين الثقافات وتلعب عملية التثاقف الدور الفعال فى بدء إعادة التفاهم المتبادل بين الثقافات التى كانت قبل ذلك مختلفة عن بعضها البعض.

فى النهاية ، يجب أن نضع الحل "الأنثروبولوجى " جانباً ، أو ، بالأحرى، الموقف الذى اتجهت نحوه الأنثروبولوجيا أساساً . فإن هذا الحل لا يقود فقط إلى إحصاء الاختلافات، وتقسيمها إلى فئات وترجمتها عن طريق لعبة المقارنات ، ولكنه يحرص على دفع عملية اكتشاف الاختلافات

إلى الدرجة التى لا تصبح فيها عوامل انفصال ، وانغلاق على الخاص ، وإنما مظاهر متعددة " لوحدة الإنسان "، التى اعتبرها الأنثروبولوجى إدموند ليتش Edmund Leach مناط العلم الأنثروبولوجى وبؤرة اهتمامه . وهى الوحدة التى يتعين الكشف عنها ، دون أن يكون لهذا الاكتشاف نهاية . وهى ليست موضوعة كشرط مسبق ، ولكنها فرضية تنطلق منها الفلسفات ذات الرؤية العامة .

الأنثروبولوجيا والاختلافات

إن اكتشاف العوالم الأخرى هو الذى يخلع على الاختلافات صيغة نظرية ، ويضفى الشرعية على العلاقات التى رسختها عوامل الغزو والقوة . وقد انطلقت عمليات الاكتشاف على نطاق ضخم مع أول توسع أوروبى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فى عصر يقع إذن ما بين النهضة والعصر الكلاسيكى ؛ فهذا الاكتشاف معاصر للتحولات الكبرى التى وضعت الثقافة الغربية على مشارف الحداثة . ثم عملت المواجهة مع العالم الأمريكى الجديد ، ومع ثقافته البراقة ، فى الوقت نفسه ، على توليد ممارسات العنف من استعمار واستغلال وعنصرية كما أطلقت العنان لتأمل الاختلاف . وهكذا تكون خطاب يقوم على اللاهوت المهيمن ، وعلى النزعة الإنسانية الوليدة . وأشهر الشواهد التى يرجع إليها كتاب الراهب الدومينيكانى لاس كازاس Las Casas، الذى يؤرخ فيه - بنبرة اعتذار - لهنود أمريكا (فى منتصف القرن السادس عشر) . فهو يلجأ إلى مقارنة قيّمة : حيث أوضح أن مجتمعات السكان الأصليين قد وصلت إلى مستوى حضارة يضارع ما بلغته نظيراتها فى مجتمعات العصر القديم اليونانى والرومانى . فلا يمكن الاختلاف - إذن - فى المكان الذى تقع فيه فى اللاحضارة، وإنما حيث يتم التعبير عنها فى مستوى أكثر عنصرية ، هو المستوى الذى تتعارض فيه

الأديان " الخاطئة " مع الأديان " الصحيحة " ، وتصبح المشكلة الأساسية هى مشكلة " عبادة الأوثان " والعلاقة بتجربة دينية غريبة تماماً عن تجربة الوحى ، تتخذ مسارها فى غياب الإيمان الحقيقى . وهكذا تختلط المستويات الثلاثة الخاصة بالمعرفة والمعترف بها - الطبيعية، والإلهية ، والشيطانية - ببعضها البعض مثيرة للاضطراب . فلقد رسمت الحدود وفقاً لمعايير اللاهوت وفلسفة المعرفة التى توجهها ، بحيث لا يمكن أن يفتح الطريق للمرور من ثقافة إلى أخرى إلا عن طريق اعتناق الدين الجديد .

وفى القرن الثامن عشر ، قام التفسير اللاهوتى - لاختلاف الثقافات - بالتخلى بوضوح عن مكانه للتفسير ذى القصد العلمى . ولقد ساعد تعدد رحلات الاستكشاف على تراكم المعلومات وتنوعها . فتغذى عليها مشروع الأنثروبولوجيا الذى فكر فيه الفلاسفة ، كما بدأ يفرض نفسه باضطراد على الخطاب الفلسفى الذى يتناول التنوع الإنسانى . ويشير چان چاك روسو Rousseau، فى مؤلفه : المقال الثانى Le deuxième discours " إلى أن الأرض كلها مغطاة بأمم لا نعرف عنها سوى أسمائها فقط " . وهو يدعونا إلى مراقبتها ووصفها . وفى مؤلفه : محاولة حول أصل اللغات L'essai sur l'origine des langues يُعرف المبدأ الذى يجب أن يقود هذا المنهج ، قائلاً: " لكى ندرس الإنسان يجب أن نتعلم أن تكون نظرتنا أكثر بُعداً ؛ ويجب أولاً أن نلاحظ الاختلافات حتى نستطيع أن نكتشف الخصائص " . إن الوحدة الإنسانية لا يمكن أن تظهر إلا فيما وراء هذا الإنجازات المختلفة التى تتسم بالقصور والتغير الدائم .

إن الاختلاف يأتى أولاً ، ومن شأن الدفعة المتاحة الآن أن تؤدى إلى إدراك التعدد بوضوح ، والتعرف على "الكيانات الإنسانية " وعلى الثقافات، وعلى تاريخ كل من تلك الكيانات

والثقافات . وقد عرفت التعددية على أنها إجابات محتملة وغير مكتملة على مشاكل الإنسان الذى يعيش فى مجتمع لا فى عزلة وتشتت ، وهى الحالة السابقة على الحالة الاجتماعية وفقاً لصيغة روسو . كما أننا بدأنا نتقبل وجهة نظر كل من هيلفيتيوس Helivetius وديدرو Diderot، التى تقول بأن الحضارة الكاملة تظل مثلاً أعلى لم يتحقق أبداً ، وهو مستوى من الكمال لم يبلغه أى مجتمع . وقد ينتج عن هذا الوضع قدر من التباعد بين الثقافات . لكن الخطاب الفلسفى عن الاختلاف ، مع تنويعاته الداخلية، يظل منغلقاً على حدود خاصة به وحده. كما أنه يؤمن بمبدأ الانفصام بين الطبيعة والثقافة ، بين حالة همجية وحالة متحضرة . ويتبنى أيضاً مبدأ التدرج والتراتب، المنبثق عن فلسفة التاريخ المعتمدة على المركزية الأوروبية، إذا كان الجنس البشرى واحداً ، فإن تنويعاته ، - كما يسميها بيفون Buffon - تتخذ شكلاً تراتبياً: ففى القمة توجد الشعوب الأوروبية ، وفى الوسط : شعوب آسيا وأفريقيا ، وفى القاع يوجد "الهمجيون" .

جان جاك روسو

وينجر القرن التاسع عشر ما أعد له القرن الثامن عشر . فلقد بدأ فى صياغة خطاب علمى حول اختلاف الثقافات . وأصبح يمثل موضوع علم مستقل هو : الأنثروبولوجيا . ويهدف هذا العلم إلى تكثيف الملاحظات المباشرة ، وتكوين شبكة من الباحثين فى شئون الإنسان ، والتعريف عن طريق الدراسات الإثنوجرافية بالعالم غير الغربى ، والقيام بعمل علمى عن

طريق عقد المقارنات . وفى المرحلة الأولى من عمر هذا العلم ، كان العمل الذى يقوم على الإحصاء والوصف يتم بالتوازى مع إعداد نظرية عن الثقافة. وأثمرت تلك الجهود لوحة للتنوع الإنسانى أخذت تكتمل باضطراد، سوف تصبح بمثابة أرشيف يحول فى المستقبل دون نسيان الثقافات التى دمرتها الاعتداءات التى سببتها مرحلة الحداثة فى توسعها ونموها . هذه الذخيرة وهذه المعرفة التى تتاح لكل ثقافة لهما نتيجتان ، الأولى هى: اكتشاف الطاقات الإبداعية الكبيرة للمجموعات التى يتكون منها الجنس البشرى إذا نظرنا إليها فى مجموعها، والوعى الأكثر إيماناً بالتعقد والثراء الخاص بكل ثقافة من الثقافات "الأخرى".

لكن التحيز الإيديولوجى لا يمحى بالتأثير العلمى فقط . فالتمركز حول السلالة لا يُزال من المحاولة الأولى، إذ أن عمليات السيطرة الاستعمارية، التى تمت فى القرن التاسع عشر مازالت تسانده . وتذهب إحدى الرؤى الفكرية التى لم تعد محل التقدير الآن ، أن الثقافات المختلفة يمكن أن تستوعب فى إطار أشكال الحضارة التى تسم تطور الحضارة الغربية فى الماضى، ثقافات حقيقية قطعت شوطاً فى التقدم وفى سرعة التغير . من هنا يتعين على الأنثروبولوجيا أن تقوم بممارسة النقد الذاتى وكذلك توجيه النقد إلى ظروف ممارستها أثناء فترة الاستعمار ، حتى تستعيد قدرتها على طرح الأسئلة الأساسية من جديد . من هذا إعادة النظر فى مشكلة فهم الثقافات فهماً كاملاً ، وهل من الممكن معرفة ثقافة من الخارج ، باستخدام الأساليب المعرفية لثقافة أخرى مهيمنة ؟ أليس من الأفضل أن نبحث

فى التعرف على الإنسان " بصفة عامة" بدلاً من المخاطرة فى محاولات التعرف على صور التحقق الواقعى العديدة؟.

ويعود بنا هذا الأمر إلى مسألة قديمة ولكنها ظلت مطروحة دائماً، هى المسألة التى تسعى إلى تحقيق الاتفاق بين تنوع الثقافات ووحدة الإنسان . وهنا نجدد العودة إلى الإجابتين اللتين سبق ذكرهما من قبل، ولكن فى صيغة أكثر دقة وإحكاماً. فتظهر فكرة النسبية المتحولة التى تترجم إلى رفض لتقييم ("قياس ") الثقافات عن طريق مرجعية وحيدة، ثم إخضاعها للتصنيف فى النهاية . وهو اختيار قبول الثقافات على ما هى عليه ، واحترامها فى تفردها وإضافة إسهام اختلافها إلى الرصيد العام المشترك للإنسانية ؛ مع المخاطرة بادراك وقبول عالم يخضع فيه كل شئ للتقييم . أما الخيار الثانى فتقدمه الإجابة الأخرى التى تدعو إلى العمومية التى تحقق وحدتها بالمنهج . فهى تقود إلى تطبيق نفس مبادئ المعرفة والتقييم على كل الثقافات ، وإلى التماس الهوية عن طريق العناصر التى تتشابه بينها أكثر من تلك التى تختلف فيها ، مع تحمل مخاطرة مضاعفة تتمثل فى تعريف هذه المبادئ تعريفاً تعسفياً ، وهو تعسف من ينطلق من ثقافة معينة متخذاً منها مرجعاً (عودة إلى فكرة التمركز حول السلالة) ، أو تعسف من يسميها باسم علم يفترض الموضوعية التامة (سيطرة النزعة العلمية). ويكشف هذا التعارض مجدداً أنه ما تزال هناك عقبات على الطريق الذى يؤدى إلى المعرفة " الجيدة " ، وبحقيقة الآخر وبطبيعة الاختلاف . وتتمثل وظيفة الأنثروبولوجيا فى الإسهام فى تخطى هذه العقبات ، مما يفرض

عليها بداية أن تحتل " مركز " الذكاء والحساسية . وقد أكد سيجالين Segalenبالفعل على ذلك حينما أضفى مضموناً على الآخر العجيب الخلاب Exotisme، عندما وجد فيها الطريقة التى تؤدى إلى فهم المختلف ، وإلى القدرة على الاقتراب من " مفهوم المختلف " والتمكن من "إدراك الآخر " .

الحداثة المعمّمة والاختلاف

إن استعادة الوعى بتنوع الثقافات ، فى المجتمعات الحالية يتمثل فى السباق الخاص بالظروف الجديدة، والمتقلبة والمتناقضة فى التعبير عن بعض آثارها .

الثقافات الخارجية ، والاتصال ، ووسائل الإعلام :

مع حصول كثير من المجتمعات الأجنبية (شعوب العالم الثالث) على الاستقلال ، فى الخمسينيات والستينيات ، خرجت تلك العوالم من أطر المخيلة الاستعمارية . فقد حصلت كل منها على المبادرة الخاصة لكى تقدم نفسها إلى العالم . فى نفس اللحظة يهرول الناس بمعدل أسرع وبأعداد أكبر وبحماس ظاهر للبحث عن الاختلاف ، مجازفين بإفساد هذا الاختلاف بصناعة سياحية قد تختزل الوطن إلى نوع من أنواع البضاعة. يحدث هذا الأمر فى نفس اللحظة، أيضاً ، التى تنشر فيها وسائل الإعلام الواسعة الرسائل والصور والتظاهرات الثقافية التى تنتجها عوالم شديدة الاختلاف .

إن الاختلاف الذى أصبح أكثر فأكثر حضوراً ويسراً ، أصبح يمارس قدرة أكبر على الإغراء . فلم يعد الآخر العجيب بالأمر النادر الذى يخدم استراتيجية تمييز قلة مفضلة، فهو يمتهن نفسه حينما يكتسب

طابع العمومية . ويسهم أيضاً هذا الاختلاف فى تشكيل الثقافة التى توصف بأنها " مثقفة " ؛ ولكنه يصبح أيضاً مؤسساً لثقافة الجماهير، فهو يندرج فى عالم الأشياء ، ويلهم المعتقدات ، والممارسات ، فيصبح مثيراً للشغف وللموضات . وما يتراءى أمام ناظرينا ، من جهة ، وتلك المعرفة القائمة على وسائل الإعلام، المعرفة التى تلعب دور الوسيط فى التعريف بالآخر ، وضعفها بسبب تأثيرات الصورة النابعة من الأحداث؛ ومن جهة أخرى ، دخول الاختلاف فى اقتصاد الاستهلاك وعالم الرموز الذى يحركه.

ثقافات نازحة ، اختلاف مفعم بالتوتر :

إن حركة الأشخاص والثقافات التى ينقلونها ، تتم فى اتجاه نطلق عليه حالياً من الجنوب إلى الشمال. وتحرص هذه الحركة على التحقق من " صعود " المعدمين نحو المناطق الأكثر تقدماً . وهكذا يصبح الآخر "الأجنبى"، الذى يفد بأعداد كبيرة عاملا على اتساع المساحات ذات الثقافة التعددية ، التى تتعدد فيها الجيوب الثقافية ذات القدرة الضعيفة على الاندماج . إن هذا الاختلاف فى القرب غير مماثل للاختلاف عن بعد، وهو الاختلاف الذى يتسم بالغرابة والذى كثرت عنه الكتابات من قبل. فهذا الاختلاف قليلاً ما يفض من شأنه لأنه لم يخرج عن حدوده المرسومة ، فهو يظل مرتبطاً بمكانه، وجاذباً عن بعد ويتم التعامل معه اختيارياً فقط .

ونلاحظ أن هذا الجوار يولد - بدرجات مختلفة - تقديراً سلبياً كما يخلق كيانات اجتماعية منفصلة على

الرغم من التعايش السلمى . وتحولها ظروف الحياة اليومية إلى سلوك يقوم على التجنب (التحاشى) أو العزلة وإلى مظاهر متكررة للتعصب والصراع تتحول تحت تأثير الحدث إلى هجمات عنف . وتشهد على ذلك ضواحى المدن الأوروبية ذات الأعداد الكبيرة من المهاجرين . وينتج عن ذلك تأثير معد؛ فالاختلافات الداخلية ؛ التى كانت تمارس فى عزلة ، ويقل تأثيرها بفعل الانتماء الطبقى ، لم تعد أقل فاعلية فى توليد التوترات والمصادمات. ويستطيع العنف أن يتجه نحو "الأفضل اندماجاً " من الداخل قبل أن ينفذ إلى الخارج ، وفى هذه الحالة الثانية ، يعم أثر الهالة شيئاً فشيئاً على المدن المجاورة . وعلى الرغم من الأحمال الثقافية الجديدة الناتجة عن التعددية وعن صور التضامن المستحدثة التى تخلقها ، فإن الاستناد إلى الاختلافات الظاهرة فى الحياة اليومية يحاول أن ينتصر على كل مرجعية أخرى، وتصبح شحنته الصراعية حرجة وخطيرة حينما يلعب الحدث أو المشاعر المفاجئة دور الصاعق.

ولهذا نجد أنه فى العالم الذى تتكاثر فيه صور التعايش السلمى فى إطار الاختلاف ، تطرح مسألة العلاقة مع الآخر على صعيد مختلف تماماً. فهى بادئ ذى بدء لم تعد مسألة فردية. وإنما تأخذ بالأحرى بعداً جماعياً، ثم ضخماً ، لأنها أصبحت أكثر ارتباطاً بتعريف الهويات : هويات الأشخاص وهويات الجماعات . فعلى صعيد قلق أو عدم يقين الهوية ؛ الذى يتفاقم بمصادفات مسار حياة كل فرد فى هذا العصر الذى يتميز بالتقلبات والأزمات المتكررة . تظهر وتطفو على السطح بشدة إيديولوجيات ذات طابع رجعى وهجومى.

تسطيح و رد الفعل :

إن الحداثة آخذة فى التوسع والانتشار ، ولكنها تقوم بعملها من خلال التناقض . فعن طريق حركتها الديناميكية وتأثيرات التقليد التى تولدها ، تحاول أن تؤدى إلى تسطيح العالم . فالتماثل المضطرد يعمل باستمرار على تآكل أوجه الاختلاف، بل إنه قد محى بالفعل بعضاً منها. فبعض أشكال الثقافة الشعبية، الريفية والحضرية ، تختفى من الوجود عندما تبلغ الحداثة ذروتها. بل إن هناك غير هذه ثقافات بكاملها فى طريقها إلى الاندثار . ويشهد العصر الراهن تزايداً غير عادى للقدرة التقنية - العلمية وتآكلاً للتنوع الذى صنعه البشر فى معتقداتهم وعاداتهم ومؤسساتهم . ومنذ عدة سنوات ، كتب عالم الأحياء فرانسوا جاكوب Francois Jacob فى بحث له يقول : " إن التنوع الوراثى يبدو أقل يقيناً من التنوع الثقافى " .

وهناك بعض الاتجاهات المضادة التى تتناقض مع " ما بعد الحداثة " التى أصبحت اختزالية ومهيمنة. فعالم ما بعد الحداثة يسعى إلى أن يستعيد مطالب حق الاختلاف واحترام الاختلافات ، وإحياء الهويات الثقافية المحجوبة ، وإعادة تنشيط " الذاكرة " الاجتماعية التى تبعث الحياة فى صور الماضى المختلفة، كرد فعل على هذا الذى يحدث . ومن شأن الحركات الوطنية والقوميات التى أُعيد تنشيطها أن تجعل من الاختلاف أداة سياسية، وتتخذه وسيلة لاستعادة زمام المبادرة بجمع المطالب التى تصب جميعها فى تأكيد الاختلاف ، ومحاولة الإفلات من المميزات الخاصة بالحداثة ومن التهميش السياسى . وهكذا يبدو التراث بمثابة الميزة الوحيدة للمعدمين، والسلاح الوحيد الذى يشهر فى وجه

المستفيدين من ما بعد الحداثة التى عملت على توليد الظلم باضطراد. ويكون هذا السلاح هجومياً بالذات حينما يوضع فى خدمة دين يزعم البعض أنه يريد أن يستعيد وحدته الأولى (الإرهاب الرافض) أو فى خدمة جماعة عرقية تسيطر عليها هيستيريا رفض كل " تلوث " (تطهير عرقى) . وفى هاتين الحالتين ، تصبح الثقافة عامل استبعاد وانغلاق. وبذلك تحمل فى داخلها سبب سُقمها ؛ وتقل حينما ترفض مواجهة الاختلافات وهو الموقف المشابه لموقف المجتمعات ذات الثقافات المتعددة والمستغرقة فى الحداثة التى تحاول اللجوء إلى "الانغلاق " على الذات Entre-soi مكتفية بالحماية المنغلقة .

وفى مواجهة الأخطار المتصاعدة ، يجب أن نذكر ثلاثة مبادئ أساسية ينبغى أن تحكم إدارة الاختلاف: فالتنوع هو ثروة وهو جزء من طبيعة الحياة نفسها، كما أنه ثمرة من ثمرات هذه الحياة؛ وفقدان التنوع ومحاولة اختزال الاختلافات ليست سوى إجراءات مميتة؛ ويجب التعرف دائماً على وحدة الإنسان بوصفها ثمرة هذا التعدد الثقافى . ولا تتكون العلاقة بالآخر من واقع مرة واحدة وإلى الأبد؛ ولكن تظل محتاجة إلى أن ننتجها وأن نصنعها وأن نعيد صناعتها. ويمكن أن تكون الأنثروبولوجيا ذات الطابع العام هى الوسيلة لتعليم الناس وتنشئتهم على هذه التصورات . وهى تبدو أكثر ضرورة وإلحاحاً بما أن القرن الحادى والعشرين سوف يكون " ثقافياً " ، بفعل عمليات الاتصال المكثف نتيجة التحديات التى سوف يفرضها هذا الاتصال.